مانحة الحياة

جلستُ شاردا أفكر فيما آل إليه حال صديقى " سعيد " بعدما قرر طبيبه المعالج ضرورة إجراء عملية جراحية وهى ما تسمى " جراحة القلب المفتوح "، وخصوصا أن صديقى أخفى موعد إجراء الجراحة عن أبويه وزوجته ، وأوصانى ألا أخبرهم إلا بعد إجراء الجراحة .. أخذت أطيب خاطره محاولا بث الطمأنينة فى نفسه ولا سيما بعد أن لمحت خيوط اليأس تعشش فى عينيه ودلالات الخوف تنبعث منهما ..

أثناء شرودى أتت تسير الهوينى .. تتهادى كالفراشة .. إنها " روضة "- شابة أنهت العقد الثانى من عمرها .. نحيفة القوام .. متوسطة الطول .. ملامح وجهها الجذاب المتناسق القسمات توحى بإنسانة مرهفة الحس .. هادئة الطباع .. كل شيئ فيها جميل ومعبر .. تحمل داخل صدرها قلبا كبيرا مليئا بالحب .. تفوح من جسدها رائحة الأنوثة الطاغية .. علاوة على خفة الظل وجمال الروح ورجاحة العقل .. صوتها أنثوى خفيض النبرات تسمعه همسا .. ينسكب من بين شفتيها .. كثيرة التفكير قليلة الكلام - جلست بجوارى تستفسر عما تردد بخصوص إجراء " سعيد " جراحة فى القلب ، لم أستطع إخفاء الحقيقة وإنكار ما ذكرته .. وأخبرتها أنه تم حجزه بمركز القلب لإجراء الجراحة بعد يومين وبالتحديد يوم الجمعة المقبل .. بدا الحزن جليا عليها ، وطلبت منى أن أخبرها بما يستجد وتركتنى وانصرفت .

فى صبيحة اليوم التالى جاءتنى " روضة " وطلبت منى أن أصحبها إلى ذلك المركز الطبى ، وألحت فى طلبها ولكنى لم أتحمس لتلبية رغبتها .. إنها صغيرة ولكن قلبها كبير مملوء بالطهر ، إن طهرها يحررها من عبودية العادات والتقاليد التى يعتبرها أصحاب النفوس المريضة عيبا .. وأقنعتها أننى سأسمعها صوته مساء اليوم فوافقتنى .. إن عدم تحمسى لرغبتها بدافع خشيتى عليها .. أنى أود أن تظل فى مأمن من لوم الناس .. وبعيدة عن تخرصاتهم الفارغة .

توجهت مساء ذات اليوم إلى " سعيد " فى مضجعه فوجدته مستسلما لفكره المشوه وقد استولى عليه اليأس ، فاصطحبته من غرفته إلى الشارع حيث كافيتيريا " ليالينا " المجاورة للمركز .. وأخبرته أن " روضة " تريد سماع صوته وأنها كانت مصرة على الحضور ولكنى طلبت منها التريث ، وسحبت تليفونه الجوال وعزفت أصابعى رقم تليفونها 69 ؟؟؟؟؟ 010 وأعطيته التليفون فاستمتع بصوتها العذب ، لقد أعادت كلماتها الأمل إلى نفسه وجعلته يتشبث بالحياة مرة أخرى بعد أن كان فقد الأمل وسئم الحياة ، وانسكبت دمعتان كبيرتان على وجنتيه وامتزجت أهازيج الفرح بآهات الحزن ، وشعر أن القلب الموجوع المصاب بالعطب قد استرد عافيته ولم يعد فى حاجة إلى تدخل جراحى ... إن القلب الملتاع المكلوم الذى ضاقت شراييه ، ويعمل بأقل من نصف طاقته قد أحس بكلمات " روضة " الرقيقة .. شعرت أنه نسى همومه وآلامه فانصرفت على وعد بالعودة فى الصباح

صباح الجمعة .. اليوم المحدد لانسياب مشرط الجراح فى سراديب قلب " سعيد " جلست معه قبل اقتياده إلى غرفة العمليات وأخذت أستحثه على التمسك بالحياة ، فإن لم يكن له فى الحياة مأرب فليتخذ له من " روضة " مأربا .. إنها تريده أن يعيش وتصلى من أجله وتدعو ربها وتتوسل إليه أن يكون به رحيما .

فى تمام التاسعة حانت اللحظة الفاصلة .. أتت ممرضة وتلفظت باسم " سعيد " فى وقار واختطفته من بيننا كما يختطف النسر الجارح الفرخ الصغير .. وسار المسكين خلفها فى صمت .. وكأنه يسير تحت تأثير مخدر .. لقد تبادر إلى ذهنى أنه متهم حكم عليه بالإعدام واستنفذ كل درجات التقاضى..وحان موعد التنفيذ .

انقبض صدرى وكادت دقات قلبى أن تتوقف فسرت خلفه عدة خطوات ولكن الممرضة التى اصطحبتة وقفت حائلا بينى وبين الاقتراب من غرفة العمليات .. تلك الغرفة التى لو أحست بأحاسيس الأنفس الملتاعة والقلوب المتضررة التى تترنح داخلها لظلت تبكى حتى يدمى قلبها وتتناثر عناصرها وتصبح كومة من التراب .

لوح " سعيد " لنا بيده ودلف بابا متسعا واختفى .. ذرفت عيناى دموع العطف وتحشرج صوتى واحتبست صرخاتى فى حلقومى فالتزمت الصمت المشوب بالخوف والترقب .

لم أدر كم من الوقت ظللت متسمرا فى مكانى ، وعندما أفقت من غيبوبة اليقظة .. أخذت أقطع الطرقة جيئة وذهابا .. وتراءى أمام ناظرى الكثير من الصور الحزينة المبهجة .. صورته وهو مترنح

تحت تأثير المخدر .. وأخرى وهو يقف فى شموخ وخيلاء بعد نجاح الجراحة .. وأناس كثيرون يجلسون فى سرادق عزاء وسط العويل والصراخ وولولة النساء .. وجلجلة ضحكاته تملأ أرجاء المكان .. فالنفس البشرية مليئة بالمتناقضات ، تلفتت حولى فلمحت مقعدا خاليا فى ركن بعيد منزوى فتوجهت إليه وارتميت به فى صمت .

استمر " سعيد " قرابة الأربع ساعات فى غرفة العمليات ، وأيدى الرحمة تحاول جاهدة آخذة بالأسباب الإبقاء على حياته والخروج به إلى شاطئ النجاة .. ظهرت بعدها الممرضة التى اصطحبته وكانت آخر من رأينا لتكون أول من نرى ... أسرعت إليها أستفسر منها لعلها تسمعنى كلمة تثلج صدرى ولكنها لم تعبأ بسؤإلى وبادرتنى هى سائلة :

- من تكون " روضة " تلك التى ظل يردد اسمها طوال العملية ؟

تلعثمت قليلا ولكنى سرعان ما أجبت :

- أنها أخته الصغيرة المدللة .

شجعنى حديثها وكررت سؤالى مستفسرا عن حال " سعيد " فأخبرتنى أنه سيبقى أربعة أيام بغرفة الرعاية المركزة ، ولن يستطيع أحد أن يراه أو يحدثه خلال تلك المدة ، واختتمت حديثها أنها ستطمئننا بين الحين والآخر .

أمضيت يومين أتابع حالته من خلال تلك الممرضة التى تتسم بالحلم وسعة الأفق وفى اليوم الثالث اقترحت عليها أن أعطيها محمولا توصله لـ " سعيد " لسماع صوته والاطمئنان عليه ولكنها رفضت بإصرار ، وتحت إلحاحى اقترحت علينا إعطائه ورقه وقلما وستطلب منه كتابة اسم لشخص عزيز لديه ، فوافقت لعدم وجود

الحل البديل ، وغابت عنا قليلا ثم عادت وبين أصابعها قصاصة ورق تبينت بها اسم " روضة " فالتقطتها على عجل ودسستها فى جيبى وأخبرت والديه وزوجته أن حالته مستقرة .. لقد انتشر خبر إجراء " سعيد " عملية جراحية كما ينتشر عبق شجرة الياسمين مع عبير الصباح .

فى صبيحة اليوم الرابع ، أحضرت الممرضة مكتوبا بخط يده فحواه : أنا بخير .. اطمئنوا . وفى مساء نفس اليوم خرج " سعيد " من الرعاية المركزة إلى الغرفة رقم 213 بالدور الثالث .

فى صبيحة اليوم التالى مباشرة أخبرت " روضة " أن " سعيد " قد غادر غرفة الرعاية المركزة ، وقد سمح له الأطباء بالزيارة ، وأن حالته تسمح بمحادثته تليفونيا ، فطلبته وبثت من روحها الطاهرة إلى روحه القلقة .. ورد عليها بصوت خافت كأنه آت من أعماق بئر عميق وطلب منها أن تستمر فى الدعاء له والصلاة من أجله .

أمضى " سعيد " عشرة أيام طريح الفراش بغرفته تلك التى قاسمته آلامه وأوجاعه ورأى فيها مخالب الموت وبذور الحياة يتصارعان بجانب فراشه وكل منهما يسعى لضمه إلى عداده .

قبل ساعات من مغادرة " سعيد " الغرفة 213 بمركز القلب .. ذكر لى أنه رغم مرضه لا يحتاج إلى أطباء وعقاقير .. بل يحتاج إلى من يسمع منه ويخفف عنه وأكد لى أنه لم يكن يرقد بالمركز الطبى وحده .. بل كانت معه من إذا أغمض عينيه رآها .. وإذا أصم أذنيه سمعها .. إن صورتها لم تفارقه لحظة .. إنها كانت تمد يديها تضمد جراحه .. إن كلماتها الرقيقة هى التى جعلته يصمد فى مجابهة الموت .. إنه مدين لها بحياته ..

وصمت بعض الوقت يلتقط أنفاسه وبادرنى قائلا " إنى أقدر لك كل ما صنعته من أجلى،ضحيت براحتك وبذلت كل غال ونفيس.

رتبت على كتفه فى هدوء ، وأيقنت أن المرء فى لحظات الضعف التى يكون فيها الفاصل بين الحياة والموت خيط رفيع تقوى صلته بربه ويصير قلبه صافيا نقيا شفافا .. إنها لحظات صدق .. ورددت عليه قائلا :- إن الفضل يرجع لذات القلب الكبير .. التى فعلت ما لم يفعله الآخرون .. إنها " روضة " باعثة الأمل